المندائيون هل هم صابئة ؟

دكتور

محمد علي خطاب

كلية الهندسة التكنولوجية جامعة البلقاء التطبيقية

عمان - الأردن

من ٣٠٧٣ إلى ٣١١٢

ويحتوي أربعة مباحث:

المقدمة

المبحث الأول: أصل المندائيين وتاريخ نشأتهم

المبحث الثاني: عقائد المندائيين

المبحث الثالث: الكتب المقدسة عند المندائيين

المبحث الرابع: عبادات المندائيين وطقوسهم

الخلاصة (الخاتمة)

الهامش

المراجع

المبحث الأول

أصل المندائيين وتاريخ نشأتهم

المندائية لغة واصطلاحا:

المندائية لغة " المندعية "، مشتقة من الكلمة الآرامية"مدعا"ومعناها المعرفة والمندائيون هم "المعرفيون"، وهذه اللهجة هي بين السريانية القديمة والآرامية، سامية الأصل، وهي بهذا المعنى مرادفة للغنوصية. والغنوص في اليونانية تعني المعرفة، والغنوصي هو المعرفي أو العارف.

وأما اصطلاحا: فهي تطلق على طائفة من الناس من أصحاب الديانات القديمة نسبيا، والتي لا تزال تعيش إلى اليوم في العراق، وتستقل بلغة دينية خاصة يطلقون عليها اللغة المندائية ، ولها تعاليم دينية تستقل في بعضها، وتتشارك في كثير منها مع أهل الأديان الأخرى؛السماوية والوضعية، وتعتبر سيدنا يحيى عليه السلام نبيها الخاص بها (١).

الأصل وتاريخ النشوء:

لا يوجد لهذه الطائفة تاريخ محدد نشأت فيه أو مؤسس معين لها، ولكن المحقق من أمرها أنها ترجع إلى أصل قديم، لأن استقلالها بلغة دينية وكتابة أبجدية لم ينشأ في عصر حديث (٢)، فأهلها يدعون بأن دينهم يرجع إلى عهد آدم عليه السلام وكتابهم المقدس هو صحف آدم عليه السلام وينسبون أنفسهم إلى سام بن نوح ويزعمون أنهم كانوا يسكنون العراق قديما، ومن ثم نزحوا إلى مصر وعاشوا فيها قرونا، ثم بعد ذلك هاجروا إلى فلسطين، وأنهم كانوا يقيمون في القدس عندما آمنوا بيحيى عليه السلام، ومن ثم هاجروا إلى مدينة حران، حيث إخوة لهم في الدين، بعد أن تعرضوا للاضطهاد والإبادة الجماعية على أيدي اليهود. ومن حران هاجروا إلى موطنهم الحالي في جنوبي العراق وإيران(٣).وقد أطلق عليهم الصائبة، كما أطلق على غيرهم ممن اعتقد بالكواكب السبعة وأبراجها الإثني عشر،

ذلك أن الصابئة اشتهروا بعبادتهم لها على مدى التاريخ، واستمر ذلك بعد الفتح الإسلامي، حيث لم يعد اسم الصابئة خاصا بطائفة معينة، وإنما أصبح اسما عاما يندرج تحته عدة فرق، لكل فرقة ما يميزها عن غيرها في العقائد والشعائر، ومنها هذه الطائفة والتي كان يطلق عليها اسم (المغتسلة) إشارة إلى طقس التعميد عندهم وهو الارتماس بالماء الجاري، والذي لأجله يسكنون بالقرب من الأنهار. قال ابن النديم عنهم:"كانوا بنواحي دست ميسان (٤) يعرفون بالمغتسلة، وبتينك النواحي والبطائح بقاياهم إلى وقتنا هذا"(٥).

آراء المعاصرين في المندائيين:

لقد حصل لبس كبير في تاريخ المندائيين، وتاريخ نشأتهم عند الكتاب المعاصرين، وحتى عند أهل الطائفة أنفسهم ويعزى ذلك إلى أسباب عدة، وأهمها:

١. إن رجال الدين المندائي يتكتمون على معتقدات دينهم أشد الكتمان، وحتى على معتنقي دينهم، ولا يقرون بعلنيتها بأي حال من الأحوال.

٢. إن دينهم ليس تبشيرا، لاعتقادهم أن دينهم خاص بهم دون سائر الناس، وما يكتب عنهم لا يضيرهم في شيء ما داموا يتمتعون بحريتهم الدينية.

٣. إن رجال الدين المندائي هم وحدهم من يتقن اللغة التي دونت بها كتبهم المقدسة، ولا يظهرون منها لعامتهم إلا ما يختص بالعبادات والطقوس.

وهذه الأسباب هي عين ما يقر به أبناء هذه الطائفة. يقول نعيم بدوي وغضبان رومي، في مقدمتهم لكتاب المستشرقة الإنجليزية الليدي دراور: "وكنا نحن أبناء هذه الطائفة نقرأ ما يكتب عنا ونتابع ما يتوصل إليه الباحثون في شأننا ونقارن بينه وبين معتقداتنا الحقيقية، فنقر البعض وننكر البعض الآخر، إلا أننا لم نبد رأيا مكتوبا مستندا إلى وثائق دينية صابئية لأسباب قد يكون منها ؛ أن رجال الدين الصابئي لا يعاونوننا؛ لأنهم لا يقرون علنية الدين فذلك يتعارض وباطنيته، إضافة إلى أن الدين ليس تبشيريا، ونحن طائفة صغيرة قليلة العدد، وأن ما يكتب عنا لا يضيرنا في شيء، ما دمنا نتمتع بالمساحة التي تمكننا من ممارسة شعائرنا بحرية، كما هو واقع الحال، يضاف إلى ذلك أن المثقفين من أبناء طائفتنا عموما، الذين يهمهم نشر المعلومات الحقيقية عنا، تنقصهم معرفة لغة الصابئية بصورة دقيقة وعميقة، وكتبنا مدونة باللغة المندائية "[٦] ونعيم بدوي وغضبان رومي هما من أكثر الكتاب المهتمين بأمر طائفتهم من المندائيين، والأسباب السالفة الذكر هي من أكبر العوائق التي أدت إلى هذا الغموض في تاريخهم، لذلك اختلف الكتاب المعاصرون كثيرا في معرفة تاريخهم أو نشأة دينهم، وهناك سبب جوهري آخر هو الذي أدى إلى تعقيد الأمر تعقيداً أكبر، وهو إضافة اسم الصابئة إليهم، فأصبحوا يعرفون ب"الصابئة المندائيين"على أنهم هم الصابئة، أو فرقة من فرق الصابئة ولقد ذكر البعض أن اسم الصابئة أطلق عليهم بعد الفتح الإسلامي ولم يكونوا يعرفون بهذا الاسم قبل ذلك، واسم الصابئة يجوز أن يطلق عليهم لغة أو مجازا، وذلك لأنهم اعتقدوا بالكواكب السبعة وأبراجها الإثني عشر مما اعتقد به الصابئة الأول، ولديهم اعتقادات أخرى تشبه الكثير من

الديانات السماوية والوضعية، وهم كما يشبهون أهل هذه الأديان في أشياء كثيرة، فإنهم يخالفونهم في أشياء أكثر.

يقول الأستاذ عباس محمود العقاد:" وأقرب ما نشبه به هذه العقيدة أنها كالحوض الذي تصب فيه مسارب الماء من كل مورد، فإذا أخذت ماءه فحللته وجدت فيه أثرا من كل مسرب، ولكنها توجد فيه على امتزاج، ولا بد من الجهد لتصفيتها والرجوع بكل جزء من أجزائها إلى ينبوعه الذي صدر منه في أصله البعيد "(٧). لهذا فإن تأثرهم بأفكار الصابئة لا يعني أنهم صابئة، فمن قال بأنهم صابئة رجع إلى ما كان من خلاف في أمر الصابئة مما زاد الأمر تعقيدا، فذكروا أنهم قوم يعبدون الكواكب ،أو الملائكة وغير ذلك. ومن أمثلة ما كتبه المعاصرون في المندائيين:

* يقول الشيخ محمد الطاهر بن عاشوُر: " والأظهر عندي أن أصل كلمة الصابئ أو الصابئة أو ما تفرع منها هو لفظ قديم من لغة عربية أو سامية قديمة هي لغة عرب ما بين النهرين من العراق. وقد جاء في دائرة المعارف الإسلامية أن اسم الصابئة مأخوذ من أصل عبري هو (ص ب ع) أي غطس عرفت به طائفة "المنديا" وهي طائفة يهودية نصرانية في العراق يقومون بالتعميد كالنصارى"(٨)، ويذكر الشيخ ابن عاشور، أن أهل هذا الدين كانوا نبطا في بلاد العراق فلما ظهر الفرس على إقليم العراق أزالوا مملكة الصابئين، ومنعوهم من عبادة الأصنام فلم يجسروا بعد على عبادة أوثانهم، وأنه لما تنصر قسطنطين حملهم بالسيف على التنصر فبطلت عبادة الأوثان منهم من ذلك الوقت وتظاهروا بالنصرانية فلما ظهر الإسلام اعتبروا في جملة النصارى ينتمون إلى النبي يحيى بن زكريا ومع ذلك يدعون أن لهم كتبا يزعمون أن الله أنزلها على شيث بن آدم، والنصارى يسمونهم يوحناسية، نسبة إلى يوحنا المعمدان وهو سيدنا يحيى عليه السلام ، ثم يقول:" وجامع أصل هذا الدين هو عبادة الكواكب السيارة والقمر وبعض النجوم مثل نجم القطب الشمالي، وهم يؤمنون بخالق العالم وأنه حكيم، مقدس عن سمات الحوادث، غير أنهم قالوا إن البشر عاجزون عن الوصول إلى جلال الخالق، فلزم التقرب إليه بواسطة مخلوقات مقربة لديه وهي الأرواح المجردة الطاهرة المقدسة، وزعموا أن هذه الأرواح ساكنة الكواكب "(٩)، وكلام الشيخ رحمه الله كله صحيح، إلا أنه خلط بين الصابئة والمندائيين، فآخذ المندائيين بما اعتقدوا من اعتقاد الصابئة بالكواكب.

* وأما الدكتور رشدي عليان، فقد عد المندائيين صابئة من أصحاب الروحانيات – وهي احدى فرق الصابئة الأولى – إذ يقول:" وسأطيل البحث في الفرقة الأولى لأنها أهم فرق الصابئين، وأقربها إلى الصابئين الأقدمين، ولعلها هي الأصل الذي تفرع عنه باقي فرقهم، ولأنهم الفرقة الحية؛ ,, أي التي لها أتباع اليوم في العراق وإيران ,, ويرى بعض الباحثين أنها الفرقة المشار إليها في القرآن "(١٠)، ولكنه عندما أتى إلى أصل دينهم ونشأته، قال: " والحق أنه من الصعب جدا القطع برأي حول تحديد مصدر دين الصابئين وإنني أصبحت أميل إلى أنه ليس منزلا وإنما هو مذهب غنوصي " (١١)، ثم يستدل الدكتور رشدي عليان على رأيه هذا، بأنه أقرب إلى الغنوصية منه إلى الأديان المنزلة، وخاصة غنوصية الثنوية، كالزرادشتية والمانوية وغيرها، فيقول في هامش الكتاب: " يميل كثير من الباحثين المعاصرين أمثال: الليدي دراور، ولدزبارسكي، وكيرت رودلفة، وررودلفماكوش وهؤلاء من المستشرقين الذين اهتموا بدراسة المندائية إلى أن مكان نشأة دين الصابئة المندائيين هو القدس وما جاورها من حوض نهر الأردن، وأرى أن الصابئة ديانة معرفية – غنوصية – ترجع إلى أبعد من استيطان الصابئين منطقة نهر الأردن. وأن مكان نشأتها هو بلاد ما بين النهرين، لكنها تطورت وتهذبت واكتسبت شكلا جديدا في القدس وما جاورها بفضل الناصورائيين – المعرفيين – وعلى رأسهم يوحنا المعمدان فقد اتبعه كثير منهم وحفظوا أقواله وتعليماته، وتكونت لديهم ثروة من التراتيل والصلوات عادوا بها من حيث أتوا "(١٢).

* وعد الدكتور علي سامي النشار المندائية ضمن مذاهب الغنوصية الفارسية كالزرادشتية، والديصانية، والمانوية، والمزدكية، إذ يقول: " وقبل أن ننتهي من عرض الفرق الغنوصية، ينبغي أن نعرض لفرقة المندائية، وكانت منتشرة في جنوبي العراق ثم في الكوفة بعد ذلك، ويبدو أنها كانت أول العقائد التي قابلها المسلمون في العراق، وملخصها:" فوق السماوات وفيما وراء ملكوت الكواكب، يوجد عالم النور حيث تستقر الحياة للواحد ملك النور المتسامي، تحيط به الكائنات المقدسة – الملائكة – ومن عالم النور هذا اشتقت روح آدم وأرواح أبنائه من المندائيين، وفي أسفل: مملكة الظلام في أسفل سافلين... نزل المندائيون إلى الأرض ولن يخلصهم إلا كائن إلهي ساعة الموت، يخلص الروح من البدن الكثيف ويعيدها إلى عالم النور "(١٣).

* وأما الدكتور حسن ظاظا، فقد عد المندائيين ضمن الفرق اليهودية، وسماها: الغنوصية الصابئة، وأكد على أنهم في بدايتهم كانوا تلاميذ للأسينيين، حيث كان ولاؤهم القومي وتعصبهم لليهودية يكفل لهم احتراما بين الناس كالذي كان يتمتع به الأسينيون [١٤]، ولكنهم مع مرور الزمن وجدوا من حولهم تراثا علميا من الأمم الأخرى كالبابليين والفرس واليونان فأخذوا ما شاءوا من ذلك وراحو يبتعدون عن اليهودية التقليدية، على نحو جعل اليهود يمقتونهم ويعلنون تكفيرهم، ثم يقول:"والظاهر أن هذه الغنوصية اليهودية مع الزمن أيضا، تلونت ألوانا، وتجزأت طوائف ربما كان منها طائفة الصابئة في بدايتها، وهم الذين يسمون كذلك المندائيين" [١٥]، ثم يؤكد على أهمية دراسة هذا التراث، وأنه هو الذي يقصد به "الإسرائيليات"، إذ يقول: "ومن المفيد جدا الاهتمام بدراسة هذا التراث، فبعضه قد تسرب إلى القصاصين المسلمين والمسيحيين، ووضع حتى الآن تحت الكلمة العامة "الإسرائليليات"[١٦].

* ويؤكد البروفيسور ميشيل تارديو أن المندائيين لا يمكن بحال من الأحوال أن يكونوا الصابئة التي ذكرت في القرآن، وإنما أطلق عليهم اسم الصابئة من قبل الفاتحين المسلمين، إذ يقول:" وإنما أطلقوا صفة قرآنية أصبحت خطأً بمثابة اسم جنس على جماعة بشرية محددة يعرفونها حق المعرفة، وهي جماعة مندائيي المستنقعات العراقية الذين كانوا قد دونوا لتوهم – غداة الفتح الإسلامي – ما لديهم من كتب مقدسة، ولكنهم من جانبهم ما كان اسمهم صابئة"[١٧].

كما يؤكد ذلك أبناء الطائفة أنفسهم، إذ يقول المترجمان المندائيان لكتاب الليدي دارور: "واسم الصابئين كاسم لهذه الطائفة غير معروف عندهم دينيا، فهم يعرفون أنفسهم باسم – مندايي – كما ذكرنا، فلا بد إذن من أن تكون تسميتهم بالصابئين قد جاءت من الأقوام الذين حولهم" [١٨].

ونخلص من هذا كله إلى أن اسم الصابئة قد أطلق عليهم بعد الفتح الإسلامي من قبل الفاتحين المسلمين، ولم يكن ذلك جزافا، بل لتأثيرهم الكبير في معتقدات الصابئة كما سنرى ذلك واضحاً جلياً.

المبحث الثاني

عقائد المندائيين

لا شك في وجود صلة وتشابه كبير بين عقائد المندائيين وعقائد الصابئة، لذلك أطلق عليهم اسم الصابئة على أنهم فرقة منهم، فوصفوا بصابئة البطائح، كما وصف أهل حران بصابئة حران، بالرغم من الاختلاف الكبير بينهما، وذلك لتقديسهم الكواكب السبعة وأبراجها الإثني عشر، ولكن دخل الكثير من الأفكار والمعتقدات إلى عقائد المندائيين من كل الأديان المجاورة لهم بالقهر تارة، وبالمعايشة تارة أخرى، أضف إلى ذلك هجرتهم المتكررة عبر التاريخ، والتي جعلتهم يتأثرون بالكثير من الأفكار والمعتقدات من الأقوام الذين سكنوا معهم وعاشوا بينهم، وهذا باعتراف أبناء الطائفة أنفسهم. يقول المترجمان نعيم بدوي وغضبان رومي: " إن تشابه بعض شعائر المندائيين مع بعض شعائر المسيحية واليهودية أو المجوسية أو بعض الشعائر الإسلامية أمر طبيعي، وذلك لتجاورهم وتعايشهم مع أهل هذه الأديان "(١٩) فقد قيل عنهم صابئة لتعظيمهم الكواكب والنجوم،وقيل عنهم يهود أو فرقة من فرق اليهود؛ للتشابه بينهم في شعائر الذبح وبعض الطقوس وبعض الأعياد التي يحرمون العمل فيها، ومن نسبهم إلى النصرانية؛ برهن على ذلك باشتراكهم في التعميد، واحترام يوحنا المعمدان – يحيى عليه السلام– وتقديس يوم الأحد والتشابه في الصوم، ومن مشابهتهم للمجوس؛ أنهم يتوجهون إلى نجم قطب الشمال وإلى الكواكب عامة، ومن مشابهتهم للبراهمة؛ أنهم يتحرجون من ملامسة غيرهم ويتطهرون إذا لمسوا غريبا في حالة من حالات العبادة، ومن مشابهتهم لأصحاب العقائد السرية والباطنية؛ أنهم يكتمون كتبهم أشد الكتمان، ولا يباشرون شعائرهم مع الغرباء، ويتقاسمون الخبز المقدس علامة على الأخوة الروحية، ومن مشابهتهم لعقائد الثنوية؛ أنهم يعتقدون أن الكون قسمان: عالم النور، وعالم الظلام، ولهم أقوال في تنزيه العقل الإلهي تشبه أقوال الفلاسفة، ومن مشابهتهم للمسلمين؛ أنهم يتوضؤون قبل صلاتهم، ويغتسلون من الجنابة، ويعرفون نواقض الوضوء، ولكنهم يغالون في ذلك بأنها لا تصح إلا في الماء الجاري (٢٠).

وهم كما يشابهون كل هذه الأديان في أشياء، فإنهم يخالفونهم في أشياء أخرى كثيرة، وتعليل هذه المخالفة أنهم تشبثوا بأصل قديم لا يفارقونه، وأما هذا التشابه فلتأثرهم بهذه الأديان ومجاورتهم أصحابها كما أسلفنا.

عقيدهم في الإله:

يعتقد المندائيون بوجود الإله الواحد الأزلي الأبدي، لا أول لوجوده ولا نهاية، وانبعثت من ذاته ومن لدنه الحياة وإليه تعود، وأنه منزه عن عالم المادة والطبيعة، لا تناله الحواس ولا يفضى إليه مخلوق، وهو الحي العظيم، وملك النور السامي، ومنه كان الملائكة الإثريون – وهم أرواح نورانية – ويعنون بهم الملائكة المقربين (٢١).

ومن ثنويتهم أنهم قالوا بعالم آخر انبثق من ذاته وهو عالم الظلام، وهو مصدر الشر في العالم، فمن ذلك ما جاء في كتابهم المقدس: "يا خالق هيبل زيوا جبرائيل الرسول ومرسله إلى عالم الظلام المملوء كله بالشر "(٢٢).

والمندائيون ينزهون أنفسهم عن عبادة الأوثان والأصنام والنار والشيطان، وعن السجود لها، جاء في كتابهم المقدس: " لا تسجدوا للشيطان، ولا تعبدوا الأصنام والأوثان، ومن يسجد للشيطان فمصيره النار، بئس المنتهى وبئس القرار، خالدا فيها إلى يوم الدين "(٢٣). وهنا نجدهم يحاولون تقليد ألفاظ القرآن الكريم حيث تأثروا به لمجاورهم أهله.

عقيدهم في الملائكة:

يعتقد المندائيون بأن الملائكة مخلوقون للحي العظيم، وأنهم روحانيون منزهون عن المادة، وفطروا على الطهارة وجبلوا على التقديس والطاعة والتسبيح، ويعتقدون بأشخاص من جنس الملائكة، ولكنهم ليسوا بملائكة، ولا هم بآلهة، وعدد هؤلاء ثلاثمائة وستون شخصا، قد أوكلهم الخالق بمساعدته في عملية الخلق، وتدبير، وإدارة شؤون العالم، وهم يعلمون الغيب، ويعلمون كل شيء من رعد، وبرق، ومطر، وشمس، وليل، ونهار، ولكل منهم مملكته في عالم الأنوار، وهم ليسوا مخلوقين كبقية الكائنات، ولكن الخالق ناداهم بأسمائهم فخلقوا، وتزوجوا بنساء من صنفهم، ويتناسلون بأن يلفظ أحدهم كلمة فتحمل امرأته فورا، وتلد واحداً منهم، ولذلك فهم يلون الخالق في المترلة والأهمية والإجلال والتعظيم والعبادة (٢٤).

وجاء في الكترابا– الكتر العظيم – أسماء لهؤلاء "الإثريون" باللهجة المندائية منهم؛ " هيبل زيوا " أو جبرائيل، ويظهر بأنه أقوى وأشجع كل هؤلاء الإثريين، لأنهم تختلف قواهم وأدوارهم وصفاهم، حيث وكل هيبل زيوا بمحاربة عالم الظلام ؛ فينتصر عليهم، ويبني عليهم الأسوار، ويقفل عليهم الأبواب، ثم يقوم بعد ذلك إلى العالم ويخلصه من شرور عالم الظلام، ومنهم "بثاهيل " الذي يساعد هيبل زيوا في صناعة العالم، ويصنع العالم بمساعدة الكواكب، إلا

أنه لا يقدر على خلق النفس في الإنسان، أما من يصنع النفس في الإنسان الأول "آدم عليه السلام " فهو أدكاس زيوا أو آدم كسيا أو مندادهي ، فلكل من هؤلاء قدرة وقوة خاصة به نالها بشدة تسبيحه، ورضا آبائه عنه، وثقتهم به، (٢٥) وهي بالضبط عقيدة الصابئة الروحانيين، ويذكر الشهرستاني قولهم: بأهم المقدسون من المواد الجسمانية، المبرؤون عن القوى الجسدانية، إذ يقولون: " فنحن نتقرب إليهم، ونتوكل عليهم، وهم أربابنا المبرؤون عن القوى الجسدانية.. فنحن نتقرب إليهم، ونتوكل عليهم، وهم أربابنا وآلهتنا ووسائلنا، وشفعاؤنا عند الله، وهو رب الأرباب، وإله الآلهة، رب كل شيء ومليكه" (٢٦).

عقيدهم في النبوة والأنبياء:

وأما عقيدهم في النبوة فهي بالضبط عقيدة الروحانيين من الصابئة، فهم لا يؤمنون بالنبوة بالمفهوم المعروف عند أهل الأديان المنزلة، وهو أن يختار الله تعالى من عباده رسلا وأنبياء يوحي إليهم بشرع يرشدون الناس به ويقيمون فيهم شريعة الله تعالى، وهذا المبدأ مرفوض عندهم لأن الله تعالى لا يكلم أحدا من البشر، ولأن المبعوث مشارك للمبعوث إليه في المادة والصورة، فبأي مزية لزمت متابعته ؟ (٢٧)، والأنبياء أمثالنا في النوع، أناس بشر مثلنا، يأكلون مما نأكل ويشربون مما نشرب (٢٨)، وهم يأتون مصداقا لقوله تعالى على لسان الكفار:"ولئن أطعتم بشرا مثلكم إنكم إذا لخاسرون" (٢٩). وهم بذلك ينفون نبوة أحد من البشر، وأما ما يسموهم أنبياء كالنبي يحيى عليه السلام الذي يعتقدون أنه نبيهم الخاص بهم دون سائر البشر. أما باقي الأنبياء الذين يؤمنون بهم، فهم أناس عاديون، وصلوا إلى هذه المرحلة بنوع من الكشف إلى المعارف العليا، وهم أناس طهروا أنفسهم من دنس الشهوات وروضوها على الطاعات، ويصفونهم بأنهم معلمون معرفيون. وأما ما عندهم من الكتب المقدسة التي ينسبونها إلى الأنبياء، فلا يدعون أنها منزلة عليهم من الله تعالى، وإنما هي من معارفهم بواسطة الكشف والفيض الإلهي ليس إلا (٣٠)، تقول الليدي دراور: "فالصابئون لا يدعون بأن دينهم أو شعائرهم التعميدية جاء بها يوحنا، بل إن تغييرات دينية تنسب إليه أنه كان معلما عظيما، وأنه كان يمارس وظيفة التعميد ككاهن، وأن تغييرات دينية تنسب إليه، كتقليل أوقات الصلاة، من خمسة إلى ثلاثة يوميا، فهو كان بالنسبة لتعاليم الصابئين – ناصورائيا – أي ضليعا في العقيدة، ذا معجزات تعالج بصورة رئيسية شفاء أبدان الناس وأرواحهم، فهو بفضل علمه – ناصروته – لا يفله الحديد، ولا تحرقه النار، ولا يغرقه الماء(٣١).

وهم يؤمنون بأربعة من الأنبياء فقط على أنهم أنبياء مندائيون، وهم: آدم عليه السلام، وشيث بن آدم، وسام بن نوح ويحيى بن زكريا عليهما السلام.

أما آدم فيعتقد المندائيون أنه أول من أتاه العلم، فعرف ربه، وحينها عرف نفسه. تقول الكاتبة المندائية ناجية المراني:"إن الصوت الأقدم الذي أتى آدم هم أول دين عرفته البشرية ودان به الصائبة المندائيون، كما تنص على ذلك تعاليمهم"[٣٢]، ثم تذكر النبي الثاني عندهم وهو شيث بن آدم وأنه كان يدعو إلى التعميد وأن اسمه بالمندائية " شيتل طابا "- الغرس الطيب- إذ تقول: "وتقول الكتابات المندائية إن العلم أتى شيتل طابا الذي يمثل الكمال الإنساني، وهو الأب الذي يقوم على التعميد، ويدعو الناس أن يصطبغوا بصبغة الله، وينبذوا العبادات الباطلة كالشمس والقمر والنار، وأن يتمسكوا بالحق الخالد "[٣٣]، وعن سام بن نوح واسمه في المندائية "شوم برنو" تقول: " إن شوم برنو قام يدعو الناس إلى الحق والإيمان، وذلك حين أتاه رسول سماوي يأمره بذلك "[٣٤]، وعن سيدنا يحيى - عليه السلام - تقول:" أما رسالة يحيى بن زكريا أو يحيى يوحنا - يهيه يهانا - فإنها بنظر المندائيين أعظم رسالة جاءت بعد آدم وأولاده "[٣٥].

وأما عن اعتقادات المندائيين في بقية الأنبياء عليهم السلام فهي على ثلاثة أنواع:

١- يحترمون قسما من الأنبياء عليهم السلام ويؤمنون بهم كإيمانهم بأنبيائهم، بأنهم عباد صالحون، وصلوا برياضة النفس والإخلاص في العبادة إلى مقام الزلفى والإلهام، ولا يوجبون اتباعهم، لأنهم بعثوا إلى أقوامهم خاصة- من دون الناس-، كاعتقادهم بسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، فهم يحترمونه ويلقبونه بملك العرب، وبالقائد العربي، على أنه صلى الله عليه وسلم بعث إلى العرب خاصة، وينقل عنهم عارفوهم أنهم قرؤوا صفة محمد صلى الله عليه وسلم في كتبهم[٣٦].

٢- يعتقدون بقسم من الأنبياء على أنهم كانوا مندائيين على دينهم، ولكنهم خرجوا من دينهم وحرفوا كلمات النور وأبدلوها بالظلام، كاعتقادهم بإبراهيم وعيسى عليهما السلام، فإنهم يعتقدون أن إبراهيم كان من المندائيين، فخرج عن ملتهم، وأخذ يناصبهم العداء، وتحالف مع قوى الظلام ضدهم، وسبب ذلك أنه كان من عائلة كهنوتية، وأنه ابتلي بدمل اضطر معه إلى إجراء عملية الختان- وهو محرم عندهم- ويمنعه ذلك من أن يكون كاهنا كبيرا، فخرج من دينهم[٣٧].

وأما عيسى عليه السلام فإنهم يعتقدون أنه كان على دينهم، بل كان من أكبر الكهنة الذين يطلقون عليهم اسم" الناصورائيين "، ومن أقواهم عقيدة وتصلبا، ولكنه بعد أن استقل بالدعوة خرج من دينهم، وحرف كلمات النور وأبدلها بالظلام، وبدل جميع الشعائر، وأقام هو وإخوانه في جبل سيناء، ودعوا لأنفسهم جميع الناس، وجلبوهم لدينهم وأطلقوا عليهم (كريستيانا) أي نصارى، وسموا على اسم مدينة الناصرة [٣٨].

٣ – يعتقدون بموسى عليه السلام وباليهود عامة، أنهم من أخبث الناس، وأنهم كانوا يعبدون آلهة عالم الظلام، وذلك لأن اليهود كانوا من أشد الناس عداوة لهم، وأنهم كانوا الجند المطيعين والخدم المخلصين للأرواح الشريرة في عالم الظلام، ويعتقدون بأن المصريين كانوا على دينهم، وقد تعلم موسى عليه السلام شيئا من معارفهم؛ لأنه تربى مع الملك فرعون [٣٩]، وأن الذين غرقوا مع فرعون كان منهم الكثير من المندائيين، لذلك فلا يزال المندائيون يقيمون وجبة طقسية سنوية على أرواح المصريين الذين غرقوا في البحر الأحمر، وهم يتبعون بني إسرائيل، ويقام هذا الحفل التأبيني كل سنة قمرية في العاشر من شهر محرم، ويسمونها بالعاشورية [٤٠].

هذا هو اعتقادهم بالأنبياء وهم يلتقون بالصابئة الأولى بعدم إيمانهم بنبوة البشر.

ولقد وقع خلط كبير بين اعتقاد المندائية واعتقاد الصابئة الأولى ببعض الأنبياء، فهؤلاء لم يؤمنوا إلا بأربعة أنبياء فقط كما ذكرنا، ولم يؤمنوا بادريس عليه السلام الذي آمنت به الصابئة الأولى، ولا بنبوة إبراهيم عليه السلام كما مر، كما أنهم تفردوا بنبوة سام بن نوح الذي لم يعرف أنه كان نبيا عند أهل الأديان السماوية، وفي هذا الخلط الذي ذكرنا وقع الكثير من الكتاب المحدثين [٤١].

عقيدتهم في اليوم الآخر:

يؤمن المندائيون بفناء الجسد وخلود الروح بعد الموت، والموت عندهم هو انتقال من العالم المادي – الذي هو بمثابة سجن ومنفى مؤقت للروح – إلى العالم الروحاني، وذلك بعد أن تحاسب حسابا عسيرا بأن توزن أعمال صاحبها فإن رجحت حسناته فإن روحه تذهب إلى عالم الأنوار حيث موطنها الأصلي، وتتنعم بما يتنعم به القديسون والروحانيون، وإن رجحت سيئاته فإن روحه تقاد إلى المطهر في عالم الظلام حيث تتعذب فيه بدرجات متفاوتة إلى أن تتطهر من ذنوبها ثم ترسل إلى عالم الأنوار. ولا يوجد لديهم خلود في الجحيم [٤٢].

وأما حالة الوفاة فلها التأثير الكبير على مصير الروح بعد خروجها من الجسد، لذلك فهم يهتمون كثيرا بساعة الاحتضار، فيجب عندهم أخذ المحتضر قبل زهوق روحه إلى الماء الجاري ليتم تعميده، ومن مات دون عماد نجس ويحرم لمسه، وأثناء العماد يغسلونه متجها إلى نجم القطب الشمالي، ثم يعيدونه إلى بيته ويجلسونه في فراشه بحيث يواجه نجم القطب الشمالي حتى يوافيه الأجل، وبعد ثلاث ساعات من وفاته يغسل ويكفن بملابس التعميد ويدفن حيث يموت، إذ لا يجوز نقله مطلقا من بلد إلى آخر، ومن مات غيلة أو فجأة، فإنه لا يغسل ولا يلمس، ويقوم أحد الكهنة بواجب العماد عنه، ثم يدفن بحيث يكون مستلقيا على ظهره، ووجهه ورجلاه متجهتان نحو الجدي، حتى إذا بعث واجه هذا الكوكب الثابت بالذات، ويضعون في فم الميت قليلا من تراب أول حفرة تحفر لقبره فيها، ويحرم على أهل الميت الندب والبكاء والعويل. والموت عندهم مدعاة للفرح والسرور، ويُعد يوم المأتم من أكثر الأيام فرحا حسب وصية يحيى عليه السلام لزوجته كما هو سائد في اعتقادهم [٤٣].

ويؤمنون بالتناسخ ويعتقدون بتطبيقاته في جوانب الاعتقاد باليوم الآخر، فهم يعتقدون بوجوب الزواج، وليس للرجل غير المتزوج من جنة لا في الدنيا ولا في الآخرة، وإذا توفي شخص دون أن ينجب أولادا فإنه يمر بالمطهر ليعود بعد إقامته في العالم الآخر إلى عالم الأنوار، ثم يعود إلى حالته البدنية مرة أخرى، إذ تتلبس روحه في جسم روحاني فيتزوج وينجب أطفالا[٤٤].

وإلى جانب ذلك كله، فإنه يوجد بعد ذلك يوم الحساب الأخير، حيث يقرر مصير النفس، فإما إلى النعيم، وإما إلى الجحيم –ذات النار المشتعلة– لتتحمل موتا ثانيا، ويتعرض غير المؤمنون لمثل هذا المصير، كما تتعرض له جميع قوى الشر، وسكان الكواكب، ومخلوقات البروج الإثني عشر، فهو يوم نهاية العالم، وفيه يرتفع النور وتعود الظلمة إلى موقعها، وأما الكائنات النورانية الخاطئة، فيرد لهم اعتبارهم، ويعودون إلى عالم النور [٤٥].

عقيدتهم في الكواكب السبعة وأبراجها الإثني عشر:

أما الكواكب السبعة فهي: الشمس والقمر والمريخ وعطارد والمشتري والزهرة وزحل، وهي نفسها التي عبدها الصابئة من قبل، أما المندائيون فهم ينفون عبادتهم لها أشد النفي، ويقولون بأنهم يعظمونها لأنها مساكن الروحانيات – الملائكة –؛ يقول نعيم بدوي وغضبان رومي:

"ويعتقد المندائيون أن مقر الملائكة في الكواكب ولذلك فهم إنما يعظمون الملائكة التي تسكنها لا الكواكب نفسها "[٤٦]، ويذكر بدوي أيضا – في تصدير له لكتاب الدكتور رشدي عليان – أن المندائيين لا يعبدون الكواكب وإنما كان هذا الوهم بسبب ممارستهم للتنجيم، والخلط بينهم وبين صابئة حران، فيقول: " وإنهم ليسوا عبدة الكواكب، وإنما جاء ذلك الوهم من توجههم للنجم القطبي أوقات الصلاة، ومن اهتمامهم بالفلك والتنجيم بصورة عامة، وكذلك مما كان يمارسه صابئة حران من طقوس فيها احترام للكواكب وتعظيم للنجوم "[٤٧].

فهم يعتقدون بأن الملائكة– الإثريون – اتخذوا من الكواكب والنجوم مقرا لهم، وهم لهم تأثير على مصير الأحياء، وأنهم يساعدون الإله في خلق الكون وتدبير شؤونه، فهم يلون الإله في المنزلة، والأهمية، والإجلال، والتعظيم، لذلك برعوا في التنجيم. فالتعظيم في الأصل لا لذات الكواكب وإنما لما قرّ فيها من روحانيات.

ويذكر " الكنزاربا " كيفية نشوء هذه الكواكب في قصة طويلة مفادها: إن الإله أرسل أحد الملائكة واسمه "هيبل زيوا"– لما يتمتع به من شجاعة وقوة – إلى عالم الظلام حين كثر شره وفساده، حيث أحكم السيطرة عليه بعد معارك عنيفة بين هذا الملاك ومساعديه، وبقيت "الروهة " أي الروح الشريرة وابنها " أور "، ثم قيد الملاك ابنها أور– سيد الظلام –، ثم دخلت الروهة على ابنها أورفوجدته راقدا لا يستطيع فك هذا القيد، فقالت له: مالك راقد يا جباري ؟ لقد أطلت إطراقك،قم نم معي، فيكون لي مثلك فيفك وثاقك، عجز أور عن أن يحرك قيوده، فجعلت نفسها قيدا، والتبست به، فولدت منه سبعة أبناء لم يعجبوها، والتبست به ثانية، فصار لها منه اثنا عشر ابنا ،[٤٨] ثم يذكر كتابهم قصة مكملة فيقول: وتركتهم جميعا لأنهم لا يشبهون آباءهم العظام فطول أحدهم شبر وعرضه شبر، ولما رآهم الملاك أراد أن يبيدهم ثم عدل عن ذلك، ويظهر أنه أشفق عليهم وأمرهم أن يطيعوه ففعلوا، فجعل منهم الكواكب السبعة والأبراج الإثني عشر، وجعل عليهم حراسا من الملائكة لأنهم لا يؤمن شرهم، وأما أسماؤهم في لهجتهم فهي: شامس أي الشمس، وسين أي القمر، وليبات أي الزهرة، وأنبو يعني عطارد ، و بيل يعني المشتري، و كيوان يعني زحل ، ونيرع يعني المريخ [٤٩].

وأما بقية أبناء الروهة الإثني عشر، فكانوا البروج الإثنا عشر والتي هي منازل الكواكب السبعة السيارة، فكانت على أشهر السنة. وأما أسماؤها فتذكرها الليدي دراور على النحو التالي :

البـــــــــــرج	القيمة العددية
(أنبار) الحمل أو الكبش (السنة الجديدة)	١
(تورا) الثور	٢
(صليميا) الميزان	٣
(سرطانة) السرطان	٤
(أرية) الاسد	٥
(شمبلتا) السنبلة	٦
(قينة) الاقصب	٧
(أرقبة) العقرب	٨
(هطية) الفرس	٩
(كدية) الجدي	١٠
(دولة) الحمل أو الدلو	١١
(تونه) السمك	١٢

ثم تذكر الليدي دراور اعتقادات كثيرة لهم في الكواكب ومنازلها بما فيها من سعد ونحس،وأنهم يستشفون المستقبل عن طريق النظر فيها، وتحكم هذه الكواكب السبعة على عدد أيام الأسبوع، فلكل يوم أحد الكواكب، وهكذا الأبراج على عدد أشهر السنة، فلكل شهر برج خاص، وأن عامتهم يلتقون بكهنتهم فيسألونهم عن أيام السعد والنحس، من زواج أو عمل أو غير ذلك من بقية أمورهم، وأن لكل مولود منهم اسما خاصا في يوم ولادته يحتفظ به ويعرف نفسه به على أنه الاسم الديني ويسمونه "الملواشة"، ويعرف الشخص باسمه واسم أمه على عادة المنجمين (٥٠)،وهذا الاعتقاد هو عينه اعتقاد الصابئة الروحانيين في الكواكب، فالمندائيون يعتقدون بتأثيرها على الكون وتدبيرها له، ولكنهم لا يصورونها في هياكلهم على هيئة أوثان. يقول الدكتور رشدي عليان: "والحق أن شعائر المندائيين المعاصرين لم تخل من تقديس الكواكب كالاتجاه إلى نجم القطب في العبادة وممارسة بعض رجال الدين منهم التنجيم" (٥١)، ثم يذكر أن الأستاذ العقاد قد أنصف وهو يتحدث عن عقيدتهم، إذ يقول: "فإن بقايا التنازع بين المعتقدات ظاهرة في العقائد الصابئية يكاد بعضها أن يكون ردا على البعض الآخر، ولا خلاص في الوقت نفسه من الوثنية والإيمان بالكواكب على صورة من الصور" (٥٢)

المبحث الثالث

كتب المندائيين المقدسة

الكتب المقدسة هي المصادر الوحيدة لأديان العالم، وليس من أمة على وجه الأرض لا تستمد ديانتها من كتب تعتمد على مصدر سماوي. ولدى المندائيين حشد كبير من الكتب المقدسة والتي يعتقدون أنها سماوية المصدر، وقد قام بنسخها أفراد الطبقة الكهنوتية لدى المندائيين، الذين قاموا كتابتها ونسخها طيلة قرون عديدة، إذ كانوا يحصلون على قسم من دخلهم بالقيام بهذا العمل للمتدينين من أفراد الطائفة، الذين يحرصون على اقتنائها لاعتقادهم بأن امتلاكها يحفظهم من الشرور في الدنيا، وينجيهم من الآخرة، ولقد دونت هذه الكتب باللهجة المندائية، وهي سامية قريبة من السريانية، وكلتاهما فرع من اللغة الآرامية، ويعتقد المندائيون أنها اللغة التي كان يتكلم بها آدم عليه السلام، وقليل من المثقفين – فضلا عن عامتهم – من يستطيع أن يقرأ أو يكتب هذه اللغة، فتعلمها مقصور في الأغلب على الطبقة الكهنوتية، تقول الليدي دراور: " وقد شكا لي هؤلاء العامة بأن الكهان لا يعلموننا قراءة وكتابة اللغة المندائية، والسبب عملي بحت، فإذا عرف العامة هذه الفئة فسيتأثر نفوذ الروحانيين، وسوف لا تكون عندئذ كتابة الطلسم احتكارا كهنوتيا"(٥٣)

وإما عن عصر تدوينها، فالثابت أنها دونت بعد الفتوحات الإسلامية، ويؤكد ذلك البروفيسور ميشيل تارديو، حيث يذكر أنها دونت غداة الفتح الإسلامي (٥٤)، وتقول الليدي دراور:" ويظهر في أغلب هذه الكتب قد دون أما في أيام الساسانيين أو بعد الفتح العربي "(٥٥)،والاحتمال الثاني هو الأرجح،لأنهم كانوا في عهد الفرس الساسانيين لا يجسرون على إظهار ما يعتقدون(٥٦)،ولم يتمتعوا بالمعاملة التي وجدوها في عهد الدولة الإسلامية،والتي يشهد بها القاصي والداني،وقد شهد بمعاملة المسلمين لغيرهم بالتسامح جمع غفير من غير المسلمين، لأن الإسلام أكد على مبدأ حرية الدين والفكر، قال تعالى: "لا إكراه في الدين" (٥٧)

وتؤكد الليدي دراور أن أغلب النسخ التي تدارستها بالعراق ليست قديمة،

وأن أقدم نسخة عثرت عليها لأحد الكتب تعود إلى القرن السادس عشر الميلادي، وتؤكد على عدم وجود نسخة أقدم منها (٥٨)، وهذا التاريخ كان بعد الفتوحات الإسلامية بكثير.

ويعتني المندائيون بكتبهم الدينية عناية فائقة،كما أنهم شديدو الحرص على منع غيرهم من الاطلاع عليها، حيث يرون في هذا الاطلاع أمرا محرما يأثم من يسمح به،ولهذا لا يكاد غيرهم

يستطيع الوقوف على أحدها إلا بشق الأنفس، وقد بذل جمهور من المستشرقين جهودا كبيرة وأموالا طائلة في سبيل الحصول عليها، فأخفق أكثرهم، ووفق بعضهم في الحصول على الكثير منها، إذ قاموا بعد ذلك بترجمتها إلى اللغات الحية، ومنهم الليدي دراور التي عاشت بينهم عدة سنوات عكفت فيها على دراسة هذه الطائفة دراسة ميدانية في بدايات القرن الماضي، ثم قامت الليدي بدراسة هذه الكتب وترجمتها للغات الحية، وتذكر في دراستها أن هذه الكتب مضطربة وغير متجانسة، ويكاد يرد بعضها على بعضها الأخر، وان الكتاب الواحد منها يحوي فقرات غالبا ما تتناقض وتعود إلى مراتب مختلفة من التعاليم الصبة [٥٩]، وقد قامت الليدي دراور بترجمة اثني عشر كتابا منها،إلى اللغة الإنجليزية، نذكرها بلهجتهم وهي:

- حران كويثا
- النيابي
- سيدر هاد نشماته
- أسفر ملواشه
- دراشة أديهيا
- ترسر ألف شياله
- القلستا
- إله ريشايا وآمله زوطا
- مصبته أدهيل زيوا
- أقماهي وزرسته
- ديوان أباثر
- كنزه ربه. [٦٠]

وقد رتب هذه الكتب بحسب قيمتها ألدينيه عندهم، الدكتور رشدي عليان [٦١]، وسنحذو حذوه في ترتيبها، مع شرح قليل يحتويه الكتاب:

((كنزه ربه)): الكنز أي الكنز العظيم، ولقد تمت ترجمته إلى اللغة العربية عام (٢٠٠٠) للميلاد بموجب قرار من مجلس الطائفة العام في بغداد ، المرقم (٢٨) في ١٩٩٧/١٠/٣، والمصادق عليه من مجلس العموم للطائفه، وقام بإعداد الصياغة الأدبية له، الشاعر العراقي عبد الرزاق

عبد الواحد المندائي، ويحتل هذا الكتاب المترلة العظمى بين كتبهم، ويعتقد المندائيون أنه صحف آدم عليه السلام ويطلقون عليها اسم (سيدرة آدم) أي صحف آدم.

ويقع هذا الكتاب في قسمين:

الأول: ويسمى: (يمين) ويحتوي على تسعه عشر كتابا، ولعل العدد هو حاصل جمع عدد الكواكب والأبراج ، ويحتوي على فقرات وموضوعات كثيرة ،كنظام تكوين العالم، وحساب الخليقة، وقصص وحكايات، وأدعية وتسابيح.

الثاني: ويسمى (يسار) وهو مكتوب من اليمين إلى اليسار، ولكن من الطرف المقابل من الكتاب، أي يتم قراءة الصفحة اليسرى قبل اليمنى. ويحتوي على شؤون الميت، ومراسم الجنائز، من تعميد وتكفين ودفن، وكيفية خروج الروح من الجسد وتسمى الروح (نشمثة) أي نسمة الحياة، وهو أصغر من الكتاب الأول لليمين).

وتصفه الليدي دراور بأنه ليس له وحدة موضوعية ويناقض بعضه بعضا، إذ تقول:"لا يمكن اعتباره كتابا متجانسا، فهو مجموعة فقرات غالبا ما تتناقض فتعود إلى مراتب مختلفة من التعاليم الصلبة "[٦٢]، وقد تيسر لي أن أطلع على هذا الكتاب، فوجدته على هذا الوصف تماما، ومن السهل جدا ملاحظة التناقضات الموجودة فيه.

وتوجد نسخة مخطوطة كاملة منه في المتحف العراقي[٦٣]، وقد ترجم هذا الكتاب وطبع عدة طبعات عربية ، فقد طبع في كوبنهاجن، كما طبع في لايبزغ[٦٤].

(سدر هاد نشماته): أي كتاب طقس التعميد وسر المعمودية المقدس، ويعتقد المندائيون أنه من وحي آدم عليه السلام وأنه أساس دين الصابئين، ويحتوي أيضا نصوص الصلوات والتراتيل التي يقرأها رجال الدين في حفلات التعميد، وقد ترجم الكتاب إلي اللغة الألمانية[٦٥] كما توجد نسخه منه مخطوطه حديثا باللغة المندائية في خزانه المتحف العراقي في بغداد[٦٦].

(النياني): أي كتاب الأناشيد، ويتضمن هذا الكتاب الطهارة الصغرى أي الوضوء وبعض الأدعية والأذكار ألدينيه والأناشيد لا، والتي تتلى في الصلاة اليومية، وكذلك بعض المراسم والأدعية التي تخص الجنائز، وما يقال في القداس على روح الميت، وترجم إلى العربية، وتوجد له نسخة مخطوطة في المتحف العراقي[٦٧].

(قلستا): أي كتاب عقد الزواج ، ويحتوي على مراسم عقد الزواج، وشعائره والاحتفالات التي تقام أثناء عقده ، وكيفيه النكاح، وإجراء الخطبة، وما إلى ذلك من إجراءات طقوس الزواج عندهم[٦٨].

(آلمه رياشيا ربه): أي كتاب العالم الأكبر، وتذكر ناجية المراني أنه يتحدث عن خلق آدم عليه السلام ونزوله إلى الأرض وتنقل منه نصا يبين كيف نزل أحد الإثريين (الملاك) إلى آدم، وأعطاه بيده اليمنى كتابا، واستلمه آدم بيده اليمنى ، ثم قبله ثلاثمائة وستين مرة، ثم ركع أمام الملك، ثم نهض ففهم الأبجدية، وأدرك الإيمان الصحيح[٦٩]، ويتضح من هذا النص أن المندائيين يعبدون الملائكة لا الكواكب.

(أباثر): وأباثر هو أحد الإثريين (الملائكة)، وهو يختص ببيان ثواب وعقوبة الأنفس، وكيفية محاسبة الإنسان، ووزن الأعمال بعد الوفاة [٧٠].

(تفسير البغرة): هو ديوان يعالج المعنى الداخلي للوجبات الطقسية، ويبحث في علم تشريح جسم الإنسان وتركيبه، والأطعمة المناسبة لكل طقس مما يجوز لأبناء الطائفة تناوله، وهذا الكتاب هو الذي حصلت الليدي دراور على مخطوطة له تعود للقرن السادس عشر الميلادي[٧١].

(ترسر ألف شياله): أي كتاب الإثني عشر ألف سؤال، وهو أجوبة وشروح لاثني عشر ألف سؤال، ويتكون من خمسة أسفار، يتناول الجزء الأول منه الأخطاء في الطقوس وطريقة غفرانها وتوضيح الشعائر[٧٢].

(دراشة أديهيا): ويسمى أيضا (سدرة أديهيا): أي تعاليم يحيى عليه السلام، وفيه تعاليم وإرشادات النبي يحيى عليه السلام، وهو يحتوي فقرات تتحدث عن: يحيى ابن زكريا عليهما السلام، ميلاده، نشأته، تربيته الدينية، تعاليمه وإرشاداته، وتعميده للمسيح عليه السلام،ووفاته وكيفيتها، وصعوده إلى السماء، وهناك نسخة منه مطبوعة في بغداد باللغة العربية.

(أسفر ملواشة): أي سفر البروج، وهو مخطوط لأغراض التنجيم والفلك، ويستخدمه رجال الدين لمعرفة أحداث السنة المقبلة، ومعرفة البرج الذي ولد فيه الشخص، وكيفية الاسم الديني لحديثي الولادة، وتعيين طالع المولود، كما يحتوي الكتاب على أذكار وأوراد متنوعة، يستعين بها المندائي على طرد النوائب وإبعاد المرض والآفات عنه[٧٣].

(أقماهي وزرسته): أي كتب الأحراز، وهي عبارة عن رقى وتعاويذ شتى يضمها درج كبير، ويدعي المندائيون أن من يحمل شيئا منها كحجاب أو تميمة فإنه لايؤثر فيه شيء، لا سلاح ولا نار، وهم يحرصون عليها كل الحرص، ولا يسمحون لمن هو على غير دينهم أن يمس الدرج الذي يحتويها، حتى لا تتنجس أو تفقد مفعولها [٧٤]، ومن هذا الكتاب كتاب آخر مختصر (أقماها ذهيقل زيوا) يتألف من مائتي سطر، يعمل على شكل تميمة يحملها الشخص؛ تمنع عنه الأخطار، ويعتقدون أن من يحمله لا يؤثر فيه السلاح أو النار[٧٥].

(حران كويثا): أي حران الداخلية أو حران السفلى، وهو كتاب تاريخي أسطوري قصصي، يشرح تاريخ المندائيين وهجرتهم وانتقالهم، وقصة ميلاد يحيى عليه السلام وأعمال اليهود [٧٦]، وتذكر الليدي دراور أنها حصلت على هذا الكتاب بعد عدة سنوات وبعد جهد مضن، وهو مخطوط ناقص؛ والبداية فيه مفقودة، وتذكر الليدي بأنه يخالف ما جاء بالكنزاربا من أن حكم العرب يكون لمدة سبعين سنة، وأن هذا الكتاب يذكر أن حكم العرب سيكون لأربعة آلاف عام قبل ظهور المسيح الكذاب، وأن هذا الكتاب كتب بعد الفتح الإسلامي، لأن الحديث فيه يتسم بالمسامحة مع المسلمين، كما يتسم بالشدة عند الحديث عن اليهود والكلدانيين، وأن المندائيين احتفظوا به مكتوما، لصفته الجدلية [٧٧].

المبحث الرابع

"عبادات المندائيين وطقوسهم"

الطهارة:

الطهارة عندهم واجبة على الذكر والأنثى سواءً دون تمييز، وتكون في الماء – الحي – الجاري غير المنقطع عن مجراه الطبيعي، وقد أجاز لهم رجال دينهم مؤخرا الاغتسال في الحمامات، و مياه العيون، والينابيع لتحقيق الطهارة إذا تعذر عليهم وجود الماء –الحي– الجاري، والوضوء عندهم يشبه وضوء المسلمين، مصحوبا بأدعية خاصة وهم متجهون إلى نجم القطب الشمالي(٧٨)، يقول العقاد:"وهم يتوضئون قبل الصلاة، ويغتسلون من الجنابة، ويعرفون نواقض الوضوء، ولكنهم يغالون فيها "(٧٩).

التعميد:

يعد التعميد من أبرز معالم هذه الديانة، ولا يكون إلا في الماء الجاري، ولا تتم الطقوس إلا بالارتماس في الماء، سواء أكان الوقت صيفا أم شتاء، ويجب أن يتم على أيدي رجال الدين المندائيين، ولا يجري التعميد إلا يوم الأحد، أوفي أعياد معينة (٨٠)، ويعتقدون في التعميد اعتقادات كثيرة منها أن الطهارة تبعد الأرواح الشريرة عنهم، وتقربهم من الملائكة، وتذكر الليدي دراور من ضمن الاعتقادات بأن الماء لا يعد رمزا للحياة فحسب، بل إن الماء هو الحياة نفسها، وأن أم يحيى عليه السلام كانت عاقرا وعندما شربت من الماء الجاري أصبحت حاملا (٨١)، حيث تذكر أوجه التشابه الكبيرة بينهما، حيث كان أهل بابل يعتقدون أن الإله (أيا) وابنه (مردوخ) هما إلها ماء الحياة، وكذلك يعتقد المندائيون أن للماء الحي أثرا خاصا به (٨٢) ويذكر الإمام الشهرستاني فرقة وثنية اسمها "الجلهكية" أي عباد الماء، إذ يقول: " يزعمون أن الماء ملك، ومعه ملائكة آخرون، وأنه أصل كل شيء، وبه كل ولادة ونمو ونشوء وبقاء وطهارة وعمارة، وما من عمل في الدنيا إلا وهو محتاج إلى الماء، فإذا أراد الرجل العبادة؛ تجرد وستر عورته، ثم دخل في الماء إلى وسطه، فيقيم ساعة أو ساعتين أو أكثر، ويأخذ ما أمكنه من الرياحين فيقطعها قطعا صغيرة، ثم يلقيها قطعة بعد أخرى، وهو يسبح ويقرأ، وإذا أراد الانصراف حرك الماء بيده، ثم أخذ منه فقطر به رأسه ووجهه وسائر جسده خارجا، ثم سجد وانصرف"(٨٣)

ويطلقون على طقس التعميد اسم الصباغة أو الصبغ، وأن اسم الصابئة مشتق منه، وهذا لا يصح لغة، ولكن ما هو هذا الصبغ أو الصباغة ؟ يجيب على هذا السؤال ما جاء في كتاب "ترسرالف شياله" ما معناه: "كل من قبل التعميد وتعمد فإنه يخرج من اليهودية إلى المندائية"(٨٤)، ويقول الدكتور رشدي عليان: " ويلاحظ أن الصابئة المعاصرين يطلقون على من يريد أن يتعمد قولهم : يريد أن يصطبغ، والصباغة والصابغ والمصبوغ، كلمات كثيرة الورود عند المتعمدين، والصبغ والصباغة يعنيان تغيير لون الشيء، فالصابئة المعاصرون يقولون مثلا — أصبن البوشك — أي اصبغ ملابسك، ومن يدخل الماء في التعميد يقول — أهيت اليردنا اصطبا، وقبل دخيه ورشمه — أي أهيت الماء لأتعمد وأتقبل الطهارة والرسم. وعليه فالمتعمد يعني: قبوله للطهارة والدين الجديد" (٨٥).

الصلاة:

ويسموها (البراخة) ويعتقدون بأنها كانت خمس صلوات في اليوم حتى مبعث سيدنا يحيى، فضم بعضها إلى بعض، وجعلها ثلاث مرات في اليوم: قبيل الشروق، وعند الزوال، وقبيل الغروب، وتستحب أن تكون جماعة في أيام الآحاد والأعياد، وفيها وقوف وركوع وجلوس على الأرض من غير سجود، وهي تستغرق ساعة ونصف الساعة تقريبا، لما فيها من قراءة لأدعية وأذكار كثيرة، ويقرأ المصلي هذه الأدعية والأذكار باللهجة المندائية، ويتوجه المصلي خلالها إلى الجدي بلباسه الطاهر حافي القدمين، ويتلو فيها أذكار يمجد فيها الرب وأسماء كثيرة للإثريين — الملائكة— العظام الموقرين وكلما يذكر اسم ملك من الملائكة ينحني ركوعا له. ويذكرون في الصلاة أيضا:" السلام عليك يا يحيى، السلام عليك يا آدم، السلام عليك يا أيها الملاك سام "، وقد أخذت طقوس الصلاة هذه من المندائيين أنفسهم، وهي مقارنة بصلاة الصابئة الأولى تختلف من حيث العدد، إذ كان الصابئة يؤدون صلاتهم خمس مرات في اليوم، وبعض فرقهم كانوا يؤدونها سبع مرات في اليوم، وأما الصابئة الحرانية فيذكر ابن النديم أن المفترض عليهم من الصلاة في كل يوم ثلاث صلوات، وبنفس الأوقات التي تؤدى بها صلاة المندائيين، فالأولى تؤدى قبل طلوع الشمس لتنقضي مع طلوعها، والثانية انقضاؤها مع زوال الشمس، والثالثة انقضاؤها عند غروب الشمس، ولكن يتخللها سجود، فالأولى ثماني ركعات، وثلاث سجدات في كل ركعة، والثانية والثالثة خمس ركعات، وثلاث سجدات في كل ركعة(٨٦).

الصوم:

والمندائيون يؤمنون بالصوم، وأنه مفروض عليهم اثنين وثلاثين يوما متفرقة طوال أيام السنة، وهو أشبه بصوم النصارى، إذ يمتنعون عن أكل اللحوم -المباحة لهم- ومنتجاتها، تقول الليدي دراور: "والامتناع عن أكل اللحوم هو النوع الوحيد في صيام الصابئين" [٨٧]، وهذا الصوم يسمى الصوم الصغير. وأما الصوم الكبير عندهم فهو كما ورد في كتابهم المقدس كنزا ربا: " إننا نأمركم ونشرح لكم الصوم، صوم رب العالمين، صوم العيون عن الغمز واللمز ورؤية الباطل، صوم الأذنين عن الإنصات إلى الشر، صوم الفم عن الكذب والتأويل، صوم القلب عن كل حساب باطل والفتن والفرقة والحقد – إن من يملأ قلبه بالحقد لا دين له –، صوم اليد عن القتل والسرقة، صوم الجسم عن زوجة غيرك، وعن الزنا، صوم ركبتيك عن السجود للشيطان أو للأصنام، صوم رجليك عن الذهاب إلى الباطل والغش، هذا هو الصوم الكبير فلا تخرجوه من أنفسكم " [٨٨].

(المندى) معبد المندائيين:

يقام المندى على الضفاف اليمنى للأنهار، وفيه قناة متصلة بالنهر، له باب يتجه نحو الجنوب، فإذا دخله المتعبد فإنه يستقبل نجم القطب الشمالي، ويتم تعميد رجال الدين فيه[89] ،ويبنى عادة من القصب – بشكل مؤقت – في أيام الأعياد والمناسبات الدينية، ويحرم على النساء دخوله [90] ، ويرتفع فوقه علم ينسب ليحيى عليه السلام [91] . ولهم اليوم معابد ثابتة من أشهرها معبد الكرخ في بغداد.

وتذكر الليدي دراور أن كلمة "مندى" تعني الهيكل في بعض اللغات الحية، وفي – السنسكريتية– الهندية القديمة نجد كلمة "مندافا" والتي تعني الظل أو الهيكل وهي مأخوذة من منديا السنسكريتية [92] .

طبقات رجال الدين:

يذكر ابن النديم في معرض حديثه عن المغتسلة بأن رئيسهم يعرف بالمسيح [93]، و أما في العصر الحديث فتذكر الليدي دراور أن الكهانة آخذ بالتضاؤل، فليست سلطة الكاهن كما كانت،

وقد تناقص دخله و جعلت الحياة العصرية من الصعب عليـه متابعـة وظيفتـه – الـشاقة- المفروضة .

و للكهانة شروط تكاد تكون تعجيزية ولا تنطبق إلا على بعض العوائل الكهنوتية، حيث يبـدأ التدريب عليها منذ الصغر؛ لمن يستوفي الشروط المطلوبة تدينا ، وعند بلوغه يمنع من أخذ شعر جسمه أو قصه، كما يتوجب عليه أن يكون سالم الأعضاء والحواس، غير مختون ، و أن يكون فحلاً لا مخصياً ،و أن تكون سلالته –أيضاً– على هذه الشروط من جهتي الأب و الأم و لعدة اجيال ، لذلك إذا حدث أمر للكاهن أفقده رجولته، أو أحد أعضاء جسمه فـلا يـسمح لـه بممارسة وظائفه الدينية[94] .

وللكهانة مكانتها المتميزة عندهم، ولها كل السلطات الدينية، وكلمتها هي النافذة في أمور الطائفة كافة؛ فالولادة والتسمية والتعميد والزواج والصلاة والذبح والجنائز، كل ذلك لا يتم إلا على أيدي رجال الدين.

وأما زيهم؛ فلباسهم البياض ولا يجوز لبس أي لون غيره، ولا يقصون شعورهم أو لحاهم، كما يجب عليهم ملازمة الطهارة وكثرة التعميد[95] .

وأما رتبهم فهي على النحو الآتي:

١– الحلالي: ويسمى الشماس، يسير في الجنازات، ويقيم سنن الذبح للعامة، ولا يتزوج إلا بكرا، فإذا تزوج ثيباً سقطت مرتبته ومنع من وظيفته، إلا إذا تعمد هو وزوجته في الماء الحي ثلاثمائة وستة وستين مرة.

٢– الترميدة: إذا فقه الحلالي كتبا معينة –عندهم– وحفظها عن ظهر قلب، يقوم رجال الدين باختباره، ثم يقومون بفحصه فحصا جسديا كاملا، للتأكد من سلامته من العيوب والأمراض، وثم يعمده الكهنة في الماء الموجود داخل المندي، ويبقى بعده سبعة أيام مستيقظاً لا تغمض له عين حتى لا يحتلم. ويترقى بعدها إلى ترميدة، وتنحصر وظيفته في العقد على البنات الأبكار.

٣– الأبيسق: وهي رتبة الترميدة الذي يختص بالعقد على الأرامل، فيتحول إلي أبيسق، ولا يسمح له أن يتحول من مرتبته هذه حتى يموت.

٤- الكترفره: على الترميده الذي يريد الارتقاء إلى هذه الدرجة، أن يكون ذا أخلاق فاضلة، محترماً ولبقاً، ومتقناً لتلاوة الطقوس والمراسم، حافظاً لكتاب (الكترازربا)، قادراً على شرح الكتب المقدسة، وأن يكون متزوجاً ومنجباً، وأن يكون سليل أسرة دينية صالحة، حينها يجوز له أن يترشح لدرجة الكترفرة، وفي مراسم أكثر تعقيدا؛ حيث يعطى هذه الدرجة، ويصبح الوكيل الرئيسي –الإلهي– على الطائفة.

٥- الريش أمة: أي رئيس الأمة، وليس بين رجال الدين المندائي اليوم من يشغل هذه الدرجة الرفيعة، ولا يتوقع أن يوجد في المستقبل، لعدم إمكانية توفر الشروط المطلوبة لهذا المنصب لأنها تعجيزية.

٦- الرباني: وهذه الدرجة لم يصل إليها إلا سيدنا يحيى عليه السلام، والرباني يرتفع ليسكن عالم الأنوار، وينزل ليبلغ طائفته تعاليم الدين، ثم يرتفع كرة أخرى إلى عالمه الرباني النوراني(٩٦).

أعياد المندائيين:

تبدأ السنة عند المندائيين بشهر شباط، وتقسم إلى اثني عشر شهرا ولكل شهر ثلاثون يوما، مع خمسه أيام كبيسة تعد شهراً منفرداً، وهي أيام عيد الخليقة، وتقع بين الثلاثين من شهر أيلول – ويسمونه شمبلته–، واليوم الأول من شهر تشرين –ويسمونه قينه– (٩٧)،وفي كل سنة خمسة أعياد من ضمنها عيد الخليقة، ويجري فيها العماد الجماعي لأفراد الطائفة.وهي كما يلي:

١- العيد الكبير: هو عيد رأس السنة، ويسمى (دهفه ربه)، ويعرف أيضا باسمه الفارسي (نوروز ربه)، ويسميه العامة (عيد الكرصة) حيث يمكثون في بيوهم ولا تغمض لهم عين مدة ست وثلاثين ساعة، خشية أن يتطرق الشيطان إليهم، أو ما يسمونه (قوى الشر أو عالم الظلام) وبعد هذا الاعتكاف مباشرة يرتمسون بالماء الجاري، ومدة هذا العيد أربعة أيام، تنحر فيه الخراف ويذبح فيه الدجاج، ولا يقومون خلاله بأي عمل دنيوي، بل تكون أيام هذا العيد للفرح والتزاور.

٢- عيد السنة الجديدة الصغرى: ويسمونه (نوروز زوطة) ويقع في اليوم السادس من الشهر الأول من سنتهم، وهذا اليوم والذي يليه يسميان (دهفه أو ششلام ربه)، والليلة بين هذين اليومين تسمى ليلة القدر؛ فيها تفتح أبواب الملاك (أباثر) أمام المتقين من الناس

فيرون أسرارها ويحصلون على ما يطلبون، وفي هذا العيد تطفأ جميع الأنوار والنيران، وتوزع الأطعمة على الفقراء، ويزور الكهان رعاياهم.

٣- العيد الصغير: ويسمونه (دهفه جنينة) ويقع بعد العيد الكبير بمائة وثمانية عشر يوما، وهو يوم واحد يقام احتفالا بعودة الملاك (هيبل زيوا) إلى عالم الأنوار بعد إحكام سيطرته وانتصاره على عالم الظلام، ويستمر لمدة ثلاثة أيام تقام خلالها مراسم التعميد الجماعي، وقراءات الأذكار على أرواح الموتى، وتقدم الصدقات على أرواح الموتى.

٤- عيد الخليقة: ويسمونه (بروانايا) أو (البنجة) وأيامه هي الأيام الخمسة الكبيسة، وفيها يقام أكبر عيد عمادي نهري، وهو احتفال ديني أكثر مما هو عيد، تقدم فيه الصدقات على أرواح الموتى، في مجالس على شكل مجالس العزاء، ليساعدوا أرواح موتاهم للصعود إلى عالم الأنوار، لأنهم يعتقدون أن الحواجز تحول بينهم وبين الموتى، ويعتقدون أن الذي يموت في هذه الأيام يكون ذا حظ عظيم؛ لأن صعود روحه يكون أسهل إلى عالم الأنوار.

٥- عيد العماد المذهب: ويسمونه (دهفه ديمانه)، ومدته يوم واحد، وهو من أقدم الأعياد عندهم، ويأتي عيد الخليقة بعده بتسعين يوماً، وهو احتفال بتعميد آدم عليه السلام وفيه يجب على الأتقياء أن يتعمدوا كأسلافهم، ويقع في فصل الصيف ولذلك فهو مناسبة محببة لتعميد الصغار، ويحصل المتعمد فيه -إذا ارتدى ملابس جديدة -على ما يعادل بركات ستين عماداً، ويحرم ذبح الحيوانات في اليوم الذي يلي هذا العيد.

هذه هي الأعياد التي تذكرها الليدي دراور[٩٨]، حيث عايشتها وعرفتها عن قرب ، وهي تؤكد على مشابهتها لأعياد البابليين والفرس من حيث التوقيت وبعض الطقوس التي تؤدى فيها، وتؤكد – بالتحديد- على عيد الخليقة أو (البنجة) بأنه هو عينه عيد رأس السنة البابلية[٩٩].

المحرمات عند المندائيين:

يحرم دين المندائيين كثيراً من الأمور أهمها:

١- القتل والقتال، إلا في حالة الدفاع عن النفس، وهو يعد من أكبر الخطايا عندهم، لذلك فهم يطلبون الرحمة والغفران، حين يذبحون طيراً أو كبشاً لاعتقادهم أنهم يقتلون نفسا.

٢- الزنا واللواط والدعارة، فلا شفاعة لمن يرتكب منها شيئاً.

٣ – شرب الخمر.

٤- الربا وما ينتج عنه.

٥- الختان لأن الذي يختتن يخرج من دينهم.

٦- حلق شعر الذقن والشارب، أو تقصيرهما.

٧- القيام بأي عمل قبل الاغتسال من الجنابة.

٨-الاقتراب من الزوجة قبل مضي ثلاثين يوما على ولادتها.

٩- السرقة والخيانة بشتى أنواعها.

١٠- شهادة الزور وحلف اليمين مطلقا.

١١- الظلم بكافة أشكاله.

١٢- الفتنة والغيبة والنميمة.

١٣- صناعة الأوثان والأصنام، والسجود لها، وللشيطان.

١٤- العمل في عيد رأس السنة الكبير.

١٥- قطع الطريق وسلب المارة.

١٦- الطلاق: إلا إذا كانت هناك انحرافات أخلاقية خطيرة، حيث يتم التفريق عن طريق رجل الدين (الكترفره).

١٧- الزواج من الأخت وابنتها، وابنة الأخ، والخالة، والعمة، وابنة زوجة الأب الثيب لابن الزوج من أم ثانية، والجمع بين الأختين (فهذه محارم).

١٨- أكل ذبائح أهل الأديان الأخرى.

١٩- أكل دم الحيوان، وأكل لحم الحيوان المريض والميت، والذي يفترسه الذئب أو الأسد، وأكل لحم الحيوان ذي الذيل، وأكل النعاج [١٠٠].

خلاصة البحث

يتضح لنا مما سبق من تاريخ المندائيين وأصل نشأتهم واعتقادهم وأفكارهم، وأنواع الطقوس والعبادات عندهم، أنهم قوم تأثروا كثيراً بأفكار الأمم الذين ساكنوهم من أصحاب الأديان –السماوية وغير السماوية–، حتى أصبح دينهم خليطا يصعب تمييزه وتحديد معتقده الرئيس، ولذلك كان الإشكال في أمرهم كبيرا، وما يزيد صعوبة ذلك تكتم كهنتهم على ما يعتقدونه، فزاد هذا الوضع الأمر غموضا وتعقيدا.

ومع هذا كله فإن لنا بعض النوافذ التي قد نستطيع من خلالها النظر إلى حقيقتهم وأصل دينهم، فهم ليسوا صابئة ولا فرقة من فرق الصابئة، واسم (الصابئة) غير معروف عندهم دينيا [١٠١]، ولم يذكر اسم الصابئة في ذلك الحشد الكبير من كتبهم المقدسة، وهم لا يعرّفون (أنفسهم) باسم الصابئة بل يعرّفون أنفسهم باسم (مندائي)،ويقولون بأن اسم الصابئة جاءنا من غيرنا، وأنهم عرفوا به أكثر من اسمهم الحقيقي [١٠٢] ولكنهم تأثروا بالصابئة كثيراً، وبخاصة مدة إقامتهم في مدينة حران، إذ أخذوا من أفكار ومعتقدات صابئة حران ما يكفي لإطلاق اسم الصابئة عليهم، وخصوصا الاعتقاد بالكواكب وعلم التنجيم، اللذين اشتهر بهما الصابئة على مر العصور، ولكن هذا لا يعني البتة أنهم صابئة، أو أنهم هم الذين ورد ذكرهم في القرآن الكريم، فهم تأثروا بالصابئة وأفكارها كما تأثر بهم الكثير؛ لأن الصابئة من أقدم الأمم تاريخاً، وكان دينهم الغالب على أهل زمانهم. وبالتالي فهم على الأغلب فرقة من فرق اليهود الغنوصية؛ المارقة من اليهودية، ولهذا يجوز أن يطلق عليهم اسم الصابئة لغةً، كونهم خرجوا من دين إلى آخر، والدليل على ذلك ما يأتي:

١– ذكر أهل التاريخ من المندائيين ومن غيرهم بأنهم كانوا من سكنة فلسطين في القدس الشريف ومن حولها، وأنهم آمنوا بالنبي يحيى بن زكريا عليهما السلام الذي يقولون عنه بأنه منا وبعث إلينا خاصة من دون الناس، ويؤكد كلامهم هذا ما جاء في كتبهم المقدسة[١٠٣]، والثابت من نسب يحيى عليه السلام أنه من بني إسرائيل وبلا خلاف، كما الثابت بأن الأنبياء عليهم السلام كانوا يبعثون إلى أقوامهم خاصة باستثناء سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم فهو بعث إلى الناس كافة، قال تعالى: { وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ }[١٠٤]، وأما عن خصوصية بعثة الرسل عليهم السلام إلى أقوامهم، ما جاء من حديث

جابر بن عبدالله أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: " أعطيت خمساً لم يعطهن أحدٌ قبلي ، ثم ذكر منها: وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة" (١٠٥).

٢- ما جاء في كتابهم المقدس (ترسر ألف شيالة) - الإجابة عن اثني عشر ألف سؤال-، بأن كل من قبل التعميد وتعمَّد فإنه يخرج من (يهودوثة إلى منديوثة) أي يخرج من اليهودية إلى المندائية(١٠٦).

٣- ما رواه المفسرون(١٠٧) عن أكثر السلف من أنهم طائفة من أهل الكتاب ، فقد روي ذلك عن ابن عباس رضي الله عنهما، وأبي العالية، والربيع بن أنس، والسدي، وأبي الشعثاء، وجابر بن زيد، والضحّاك،وإسحق بن راهويه وغيرهم خلقٌ كثير.

وأما من قال من السلف إنهم قوم يعبدون الملائكة؛ كقتادة، والحسن،والخليل، وأبي جعفر الرازي، فكلهم ذكروا أنهم قوم يعبدون الملائكة ويقرؤون الزبور، والزبور هو الكتاب الذي أنزل على سيدنا داود عليه السلام. وأما عبادتهم للملائكة؛ فلأنهم رأوا منهم ذلك، وقد مر بنا بداية هذا البحث.

وأما ما روي عن بعض السلف كمجاهد، وعطاء، وابن أبي نجيح، وسعيد بن جبير، من أنهم "قوم تركب دينهم من الأديان ولا دين لهم" فذلك لمخالطتهم تلك الأديان، وكلهم ذكروا اليهود من ضمن تلك الأديان وهي:"المجوسية واليهودية والنصرانية" ولم يذكروا غيرها، وأما عن قولهم: " لا دين لهم" فلأنهم خالفوا كل هذه الأديان، فهم يكفرون اليهود والنصارى والمجوس كما مر معنا.

٤- جاء عن العلماء المتقدمين من أهل الملل والنحل، كابن النديم (ت٣٨٥ ه) وسماهم (المغتسلة)، وقال الإمام البغدادي: "فأما المسمون بالصابئة من أهل واسط وحرّان، فما هم الصابئون المذكورون في القرآن"(١٠٨)، وكذلك قال الشهرستاني عن أهل واسط(١٠٩) وواسط هي أحد محافظات العراق التي لا يزال يقطنها المندائيون إلى اليوم، وأما المعاصرين من الباحثين أمثال: الدكتور حسن ظاظا، والدكتور عرفان عبد الحميد، فقد عدوا المندائيين من فرق اليهود الغنوصية، ويشبهونهم بطائفة الأسينيين اليهودية الغنوصية، والتي اكتشفت مخطوطات لها في منتصف القرن الماضي، وقد أطلق عليها مخطوطات البحر الميت، لما بينهم من أوجه التشابه في الكثير من الملامح والاعتقادات(١١٠).

٥- المستشرقة الإنجليزية الليدي دراور التي عكفت على دراسة المندائيين حقبة من الزمن دراسة ميدانية، فإنها كثيرا ما تشبههم بالأسينيين[١١١]، كذلك المستشرق الفرنسي البروفيسور ميشيل تارديو، فهو ينفي نفيا قاطعاً أن يكون للمندائيين أي صلة بالصابئة، ويفند أقوال المستشرقين الذين قالوا بذلك[١١٢].

وعلى هذا فإن المندائيين ليسوا صابئة ولا فرقة من فرق الصابئة، بل هم من فرق اليهود المارقة الخارجة عنها، فهم يكفرون اليهود، بل ويكفرون موسى و عيسى عليهما السلام، وهم لا يبغضون أمة من الأمم كبغضهم لليهود[١١٣]، وهو أمر طبيعي جداً لما تعرضوا له من القتل والتشريد والإبادة الجماعية على أيديهم في فلسطين، وذلك بسبب إيمانهم بيحيى ، وهذا ما حصل فعلاً، إذ كان اليهود عبر تاريخهم متفرقين إلى فرق يقتل بعضهم بعضاً ويكفر بعضهم بعضاً، وهو ما حصل لطائفة الأسينيين، وكذلك مع من أمنوا بعيسى عليه السلام [١١٤]. ولم يسلم نبيّ من أنبيائهم من شرهم كموسى وهارون عليهما السلام [١١٥]، ولم يستقر اليهود عبر تاريخهم على عبادة الله وحده، يقول الدكتور أحمد شلبي: "لم يستطع بنو إسرائيل في أي فترة من فترات تاريخهم أن يستقروا على عبادة الله الواحد الذي دعا له الأنبياء، وكان اتجاههم إلى التجسيم والتعدد والنفعية واضحا في جميع مراحل تاريخهم، وعلى الرغم من ارتباط وجودهم بإبراهيم إلا أن البدائية الدينية كانت طابعهم، وتعد كثرة أنبيائهم دليل تجدد الشرك فيهم، وبالتالي تجدد الحاجة إلى أنبياء يكررون الدعوة إلى التوحيد، وكانت هذه الدعوات قليلة الجدوى على أية حال، فظهروا للتاريخ بدائيين يعبدون الأرواح والأحجار، وأحيانا مقلدين يعبدون معبودات الأمم المجاورة التي كانت لها حضارة اليهود"[١١٦].

الهوامش

١- أبو الأنبياء ١١٠ -١١٣ للمزيد انظر الصابئة المندائيون: مقدمة المترجمين: ١٥، والصابئون حرانيين ومندائيين: ٦٥، ونشأة الفكر الفلسفي في الإسلام ١٩٧/١

٢- الموسوعة الميسرة: ٧١٥/٢، وانظر الصابئة المندائيون: ١٥، والصابئون حرانيين ومندائيين: ٦٧

٣- ميسان: إحدى محافظات العراق الجنوبية ومركزها مدينة العمارة تقع بين البصرة وواسط، ولا تزال تلك مواطن المندائيين الرئيسة حتى يومنا هذا.

٤- الفهرست: ٤٤٣

٥- الصابئة المندائيون: ٤.

٦- أبو الأنبياء: ١١٤.

٧- التحرير والتنوير: ٥٣٣/١

٨- المصدر السابق: ٥٣٤/١

٩- الصابئون حرانيين ومندائيين: ٤٧

١٠- المصدر السابق.: ٨١

١١- المصدر نفسه ص ٨٢.

١٢- نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام: ١ / ١٩٨.

١٣- الأسينيون: فرقة يهودية دعي أصحابها بالأطباء الروحانيين وهم أقرب ما يكونون إلى التصوف.

١٤- الفكر الديني اليهودي: ٢٤١.

١٥- الفكر الديني اليهودي: ٢٤٣.

١٦- صابئة القرآن وصابئة حران: ١٠

١٧- الصابئة المندائيون: ٨.

١٨-: المصدر السابق ٢٠.

١٩- أبو الأنبياء: ١٠٩-١١١، بتصرف شديد ولمزيد بحث، أنظر الصابئون حرانيين ومندائيين: ص ١٧، ٨٩.

٢٠- الموسوعة الميسرة: ٢ / ٧١٧، والصابئون حرانيين ومندائيين: ١٠٠.

٢١- الكترا ربا: يمين ٧.

٢٢- المصدر السابق: يمين ٨.

٢٣- الموسوعة الميسرة: ٢/٧١٧، والصابئون حرانيين ومندائيين: ١٠٢.

٢٤- الصابئة المندائيون: ٣٣، الكترا ربا: الأيمن٩١.

٢٥- الملل والنحل: ٢٢٦.

٢٦- الصابئون حرانيين ومندائيين: ١٠٣.

٢٧- الملل والنحل: ٢٢٦.

٢٨- سورة المؤمنون: الآية / ٣٤.

٢٩- الصابئون حرانيين ومندائيين: ١٠٣-١٠٤.

٣٠- الصابئة المندائيون: ٤٢.

٣١-مفاهيم صابئية مندائية: ١٠١.

٣٢. المصدر نفسه ص ١٠١.

٣٣. مفاهيم صابئية مندائية: ١٠١.

٣٤. مفاهيم صابئية مندائية: ١٠٢.

٣٥. أبو الأنبياء: ١١١.

٣٦. الصابئون حرانيين ومندائيين: ٧٩.

٣٧. الصابئة المندائيون: ٤٦.

٣٨. الصابئون حرانيين ومندائيين: ٧٦.

٣٩. الصابئة المندائيون: ١٥٠.

٤٠. إبراهيم أبو الأنبياء: ١١١، والصابئون حرانيين ومندائيين: ٧٧.

٤١. الصابئة المندائيون: ١٩

٤٢. ينظر: الصابئة المندائيون: ٢٥٧-٢٩١ باختصار شديد.

٤٣. الموسوعة الميسرة: ١ / ٧١٩ - ٧٢٠ باختصار.

٤٤. الصابئين حرانيين ومندائيين: ١٠٨.

٤٥. الصابئة المندائيون: ٢١.

٤٦. الصابئون حرانيين ومندائيين: ١٤.

٤٧. الكنزاربا: يمين ١١٣ – ١١٤.

٤٨. الكنزاربا: يمين الكتاب الخامس: ٩١.

٤٩. ينظر: الصابئة المندائيون: ١٣٣-١٤٢.

٥٠. الصابئون حرانيين ومندائيين: ٩٩.

٥١. أبو الأنبياء: ١١٤.

٥٢. الصابئة المندائيون: ٦٥.

٥٣. صابئة القرآن وصابئة حران: ١٠.

٥٤. المندائيون: ٦٥.

٥٥. أحكام القرآن: ٥ / ٢٨٣.

٥٦. البقرة – الآية ٢٥٦.

٥٧. الصابئة المندائيون: ٦٧.

٥٨. الصابئة المندائيون: ٦٥ – ٦٦.

٥٩. الصابئة المندائيون: ٥

٦٠. الصابئون حرانيين ومندائيين: ١٢٣.

٦١. الصابئة المندائيون: ٦٥.

٦٢. الموسوعة الميسرة: ٢/٧١٥.

٦٣. المصدر نفسه

٦٤. الصابئة المندائيون: ٧٠

٦٥. المصدر نفسه ونفس الصفحة

٦٦. الموسوعة الميسرة: ٢ / ٧١٥.

٦٧. المصدر نفسه ونفس الصفحة.

٦٨. الصابئون حرانيين ومندائيين: ١٢٤

٦٩. مفاهيم صابئة مندائية: ١٠٠

٧٠. الصابئون حرانيين ومندائيين: ١٢٤

٧١. الصابئة المندائيون: ٦٧.

٧٢. الموسوعة الميسرة: ٢ / ٧١٥، والصابئون حرانيين ومندائيين: ١٢٤.

٧٣. الصابئون حرانيين ومندائيين: ١٢٥.

٧٤. الموسوعة الميسرة: ٢/٧١٥.

٧٥. الصابئون حرانيين ومندائيين: ١٢٥

٧٦. الصابئة المندائيون: ٤٥.

٧٧. الموسوعة الميسرة: ٢/٧١٨.

٧٨. أبو الأنبياء: ١١٠.

٧٩. الصابئة المندائيون: ١٦٧ –١٦٩

٨٠. الصابئة المندائيون: ١٦٧

٨١. الصابئة المندائيون:١٨٩.

٨٢. الملل والنحل: ٤٥٩.

٨٣. الصابئون حرانيين ومندائيين: ٢٨.

٨٤. المصدر نفسه.

٨٥. الفهرست: ٤٢٩.

٨٦. الصابئة المندائيون: ١٥٤

٨٧. الصابئون حرانيين ومندائيين: ١١٦

٨٨. الفرق بين الفرق: ٢٦٤.

٨٩. الفهرست: ٤٣٠.

٩٠. الموسوعة الميسرة: ٢ / ٧١٧.

٩١. كجرات مدينة هندية تنسب إليها اللغة الهندية.

٩٢. الصابئة المندائيون: ٥٣.

٩٣. الفهرست: ٤٦١.

٩٤. الصابئة المندائيون: ٢٢٣، وما بعدها.

٩٥. الصابئون حرانيين ومندائيين: ١٢٦.

٩٦. الصابئة المندائيون: ٢٢٣ –٢٥٤ بتصرف شديد، والموسوعة الميسرة : ٢/ ٧١٦.

٩٧. الصابئة المندائيون: ١٤٣.

٩٨. أسماء وتفاصيل هذه الأعياد: انظر الصابئة المندائيون:١٤٥ – ١٥٤.

٩٩. الصابئة المندائيون: ١٥١.

١٠٠.الصابئون حرانيين ومندائيين: ١١٦-١١٧، والموسوعة الميسرة ٢ /٧٢

١٠١. الصابئة المندائيون: ٨.

١٠٢. المصدر نفسه ونفس الصفحة.

١٠٣. سبأ – الآية: ٢٨

١٠٤. صحيح البخاري – كتاب التيمم – رقم الحديث (٣٣٥)، ونحوه في صحيح مسلم – كتاب المساجد ومواضع الصلاة – رقم الحديث (٥٢١).

١٠٥. الصابئون حرانيين ومندائيين: ٢٨.

١٠٦. انظر جامع البيان ١/٣٦٧ – ٣٦٨ وتفسير القرآن العظيم ١/ ١٤٦-١٤٧ والجامع لأحكام القرآن ١/٢٩٥ – ٢٩٦ والبحر المحيط ١ / ١١٤ والكشاف: ١/١٤٩

١٠٧. الفرق بين الفرق: ٢٤٨

١٠٨. الملل والنحل: ١١٤.

١٠٩. الفكر الديني اليهودي للدكتور حسن ظاظا: ٢٤١-٢٤٣، ونشأة الفكر الفلسفي في الإسلام للدكتور النشار: ١٩٧ – ١٩٨، واليهودية للدكتور عرفان عبد الحميد: ١٨١ – ١٨٦

١١٠. الصابئة المندائيون: الصفحات: ٦٠، ١١١، ١٩٧،١٥٧،١١٥.

١١١. صابئة القرآن وصابئة حران: ٧ – ١١.

١١٢. الصابئون حرانيين ومندائيين:٧٦.

١١٣. اليهودية للدكتور أحمد شلبي: ١ / ١٧٧.

١١٤. المصدر نفسه: ١٧٢.

١١٥.اليهودية: ١٨٦.

المصادر والمراجع

١- القرآن الكريم

٢- ابن كثير: عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي تفسير القرآن العظيم، قدم له:عبد القادر الأرنؤوط / دار الفيحاء الطبعة الثانية / ١٤١٨هـ - ١٩٩٩م /دمشق.

٣- ابن حيان: أثير الدين محمد بي يوسف بي حيان الأندلسي البحر المحيط في التفسير، تحقيق الشيخ عرفات العشا حسونة/ دار الفكر ١٤١٢ هـ - ١٩٩٢م/ بيروت.

٤- ابن النديم: محمد بن إسحاق بن النديم /الفهرست / تحقيق الشيخ محمد أحمد المكتبة التوفيقية - القاهرة.

٥- البغدادي: الأمام عبد القاهر بن طاهر بن محمد البغدادي الفرق بين الفرق/ تعليق الشيخ إبراهيم رمضان / دار المعرفة/الطبعة الرابعة ١٤٢٤هـ -٢٠٠٣م - بيروت.

٦- البخاري:محمد بن إسماعيل/الجامع الصحيح/ دار إحياء التراث/بيروت ١٩٩٩م.

٧- تارديو: المستشرق الفرنسي البروفيسور ميشيل تارديو/صابئة القرآن وصابئة حران/ ترجمة: سلمان حرفوش/دار الحصاد/الطبعة الأولى ١٩٩٩م/ دمشق

٨- الجصاص: أبو بكر أحمد ن علي الرازي الجصاص أحكام القرآن /تحقيق عبد السلام محمد علي شاهين /دار الكتب العلمية/ الطبعة الأولى ١٤١٥هـ - ١٩٩٤م- بيروت.

٩- الزمخشري: جار الله محمود بن عمر الزمخشري الكشاف عن حقائق غوامض التتريل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل/ دارالكتب العلمية / الطبعة الأولى/ ١٤١٥هـ -١٩٩٥م/ بيروت.

١٠- الشهرستاني: أبو الفتح محمد بن عبد الكريم بن محمد بن أبي بكر أحمد الشهرستاني الملل والنحل/ تحقيق: أحمد حجازي السقا ومحمد رضوان مهنا/مكتبة جزيرة الورد/الطبعة الأولى /١٤٢٧هـ -٢٠٠٦م- القاهرة.

١١- شلبي: الدكتور أحمد_ اليهودية / مكتبة النهضة المصرية/ الطبعة الثانية عشرة ١٩٩٧م /القاهرة

١٢- الطبري: أبو جعفر محمد بن جرير الطبري جامع البيان عن تأويل آي القرآن/ دار إحياء التراث العربي/ الطبعة الأولى/١٤١٢هـ -٢٠٠١م- بيروت.

١٣- ظاظا: الدكتور حسن ظاظا / الفكر الديني اليهودي أطواره ومذاهبه/ دار القلم/الطبعة الثانية ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م/دمشق

١٤- عاشور: محمد الطاهر بن عاشور/ تفسير التحرير والتنوير/ دار سحنون ١٩٩٧م- تونس

١٥- عبدالحميد: الدكتور عرفان عبد الحميد /اليهودية / عرض تاريخي للحركات الحديثة في اليهودية/ دار عمار ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م /عمان

١٦- العقاد: عباس محمود العقاد / أبو الأنبياء الخليل إبراهيم/ مطابع أخبار اليوم/ ١٩٥٣م /القاهرة.

١٧- عليان: الدكتور رشدي عليان/ الصابئون حرانيين ومندائيين/ مطبعة دار السلام/الطبعة الأولى١٩٧٦م- بغداد.

١٨- القرطبي:أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر الأنصاري القرطبي الجامع لأحكام القرآن / دار الكتب العلمية/ ١٤١٣هـ -١٩٩٣م/ بيروت.

١٩- الكنزاربا: أو الكنز العظيم/الكتاب المقدس للمندائيين / ترجمة: الدكتور يوسف متى قوزي والدكتور صبيح مدلول السهيري/ وأعد الصياغة الأدبية الشاعر المندائي عبد الرازق عبد الواحد/ شركة الديواني الطبعة الثانيةم٢٠٠١م - بغداد.

٢٠- الليدي: المستشرقة الإنجليزية الليدي دراور/الصابئة المندائيون/ ترجمة: نعيم بدوي وغضبان رومي/ مطبعة الديواني/ الطبعة الثانية ١٩٨٧م- بغداد.

٢١- مراني: ناجية المراني / مفاهيم صابئية مندائية/:شركة التايمز/ الطبعة الثانية ١٩٨١م- بغداد

٢٢- الموسوعة: الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة/الندوة العالمية للشباب الإسلامي/ دار الندوة العالمية / الطبعة الخامسة / ١٤٢٤هـ -٢٠٠٣م/ الرياض.

٢٣- النشار: الدكتور على سامي النشار/نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام/ دار المعارف الطبعة التاسعة- القاهرة.

٢٤- النووي: مسلم بن الحجاج/صحيح الجامع/دار إحياء التراث/بيروت ٢٠٠ م